

## الترتيل والمرتل وحياته الروحية

### أولاً: مقدمة

يقول شاعرٌ فارسي: "أن الموسيقى كانت حوريةً في سماء الآلهة، تعشقت آدمياً وهبطت نحوه من العلو، فغضب الآلهة إذ علموا، وبعثوا وراءها ريجاً نثرها في الجوى، وبعثتها في زوايا الدنيا، ولم تَمُتْ نفسها، بل بقيت حيةً تقطن آذان البشر".

الموسيقى لسانٌ جميع أمم الأرض، نسجت معبوداتها بالأناشيد، ومجدتها بالألحان، وهنا كانت التراتيل. التراتيل هي صلواتٌ وشعرٌ منتظمٌ ملحنٌ يهذب القلب الذي زلفها إلى الخالق العظيم، ونستذكر داوود الذي طلب المغفرة لزلزلاته وهو يعزف على قيثارته التي انبثقت من قلبه مخاطباً الله.

من هنا أن الترتيل في كنيستنا كلمةٌ منظومةٌ تستوعب كشفاً إلهياً بالعقيدة، وتالياً حضوراً إلهياً. الله في الترتيل حاضر. الترتيل، في الأصل، ليس نتاجاً فكرياً أو شعورياً بل ثمرة اللقيا منسكبة بلغة الفكر والشعور.

الترتيل رائحة أعراق المجاهدين في التماس المراقى الإلهية ورائحة طيب إلهي يعبق استجابةً سماويةً لتلك الأعراق. ويبقى هذا الطيب مكتنزاً فيه إلى أن يقع في نفس استحرها ربها. الترتيل موقع التقى فيه قدس بربه فيأتيك حائلاً على ما خبره سواك، وطريقاً إليه ليكون لك أنت أيضاً أن تحتبر ما يُخبرك به العارفون خلاصاً لك ولأهل بيتك أيها المرتل.

في هذه الورقة البسيطة، سنحاول أن نتلقف شيئاً ولو بسيطاً عن أهمية الترتيل في حياتنا، وخاصةً نحن المرتلين، انطلاقاً من الكتاب المقدس والآباء، مروراً بالمشاكل التي تعترض المرتل، لننهي حديثنا بصفات المرتل الناجح من خلال عيشه الحياة الروحية الصحيحة التي ترفعه من كونه مرتلاً أرضياً يتخبط في كيفية أداء كلمات الصلاة، إلى ملاكاً سماوياً يرقص فرحاً وهو يمجّد العرش الإلهي قائلاً: "قدوسٌ قدوسٌ قدوسٌ...".

### ثانياً: الموسيقى الكنسية في الكتاب المقدس

منذ البدء، وفي العهد القديم نسمع استخداماً للموسيقى الكنسية، فكان (يوبال) ابن آدم أول من عزف على العود والمزمار (تك4:21-22). ولا ننسى أن الموسيقى كانت عند العبرانيين مزيجاً من الرقص والغناء ومرافقة الآلات (مز150:4 + مز25:68 + خر2015:2 + صم5:6). ولقد سُمي الشعر الغنائي عندهم (بالمزامير) وهي مجموعة من الأناشيد والقصائد والتسابيح كُتبت بوحي من الله.

أما في العهد الجديد، فقد استخدم الرب يسوع وتلاميذه إنشاد المزامير والتراتيل في صلواتهم الجماعية "ثم سبحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون" (مت26:30، مر26:14، لو37:19، أع25:16).

أيضاً الرسول بولس أوصى أعضاء الكنائس المؤسسة حديثاً: "... امتلئوا بالروح مكلمين بعضكم بعضاً بمزامير وتسايح وترانيم روحية مترنمين ومرتلين في قلوبكم للرب" (أف5:18-19، انظر كو3:16، وعب2:12) إلى هذا الأساس استمرت الكنيسة في استخدامها المزامير والتسايح والترانيم الروحية في عبادتها (هناك ترانيم في عبادة الكنيسة الأرثوذكسية ترجع إلى القرن الثاني مثل يا نوراً بهياً وامجد لك يا مظهر النور). لأنها أدركت أن هذه تساعد المؤمنين على الصلاة الحقة والامتلاء من الروح، القديس يوحنا الذهبي الفم مثلاً يؤكد في تعليقه على المزمور 41: "لا شيء يرفع الروح ويعطيها أجنحةً ويجررها من الأرض ويعتقها من أثقال الجسد ويجعلها تتوق إلى الحكمة، هازئةً باهتمامات الدنيا، كأنغام التراتيل الروحية المشبعة بالانسجام والحلاوة". كونها تسمو بهم شيئاً فشيئاً، مطهرةً أفكارهم ومشاعرهم للوصول بهم إلى نقاوة القلب. من هنا أتى حرص الكنيسة الأرثوذكسية الدؤوب على أن يكون مؤلفو وملحنو تراتيلها لا من فناني هذا العالم بل من الذين عاشوا خبرة الصلاة النقية والحياة مع الله.

من هنا أكد الآباء على أن يتمسك المرتلون في الكنائس بالأصول الفنية والروحية المتسلمة، وأن يقدموا تراتيلهم لا بالصراخ أو بتفنن لا مبرر له بل بمخافة الله وقلب متخشع متواضع. تشديد الكتاب المقدس والآباء على ما ذكرنا، يؤكد أهمية الترتيل الكنسي في حياة المرتل والجماعة ككل.

### ثالثاً: أهمية الترتيل الكنسي والمرتلين

الترتيل عملٌ مقدسٌ ويستحق أن يُدعى إلهياً أكثر من أيّ عملٍ آخر، فالمرتل أو المرتلة هو فم الكنيسة، أي الشعب المؤمن الذي يأتي إلى الكنيسة من أجل الصلاة. نحن عندما نرتل لا نعبر عما في نفوسنا فقط بل عما في نفوس جميع الحاضرين في الكنيسة.

يجب أن تفكروا أيها المرتلون، عندما ترتلون، كم هو عظيمٌ عملكم هذا ولتتعجبوا من رحمة الله الذي يسمح لخطاة الأرض أيضاً أن يسبحوه. فمثل هذا العمل المقدس هو عمل الملائكة لا البشر "ذوي الشفاه الدنسة"، عليكم أن تضاعفوا الوزنة التي ائتمنكم الله عليها بحكمة وأن يقول كل واحدٍ منكم لنفسه بكل تواضع وخوف الله: "يا نفسي ها هي الوزنة التي ائتمنك الله عليها فاقبلي الموهبة بخوف".

تكمن أهمية الترتيل أو التسبيح بكونه يجعلنا بعلاقةٍ صحيحةٍ مع الله، تعكس حقيقة طبيعتنا البشرية التي تحتاج دائماً إلى الإله الذي يُنقذها مما تمرّ فيه. فالإنسان يُرتل عندما يتعبّد لله، والعبادة هي تواصلٌ مع الله. وليكون هذا التواصل حقيقي علينا أن نُخضع ذواتنا لله بتطهير قلوبنا.

لماذا كلّ هذا الكلام عن الترتيل وعلاقته بالله؟ هل لنؤكد على أهمية معرفة كيف نرتل؟ ولماذا نرتل؟ ومتى نرتل؟ وأهمية الجوقة وقائدها.

كثيرة هي النصوص الليتورجية المرتلة والتي نشعر عبرها بأننا نقترّب أكثر فأكثر من الله. من هنا على عاتق الجوقة أن تُظهر لنا عبر هذه الليتورجيا ماذا يعني أن نكون في المسيح، وأن نعكس ألوهيته علينا عبر الترتيل، لنعكسها نحن بدورنا على الآخرين عندما نصليها بالحق والروح.

الجوقة تقودنا إلى إظهار إنسانيتنا، وهي في هذه العملية تجعلنا نشترك في الحياة الإلهية وفي تقرير مصيرنا. إنها التي تلهمنا وتتركنا بعضنا مع بعض في حالة شركة مع أجواق الملائكة التي تقف مُسبّحةً عند العرش الإلهي. إنها الجوقة التي تعلّمنا لاهوت الكنيسة وتدعم رسالة الأسقف والكاهن. بالمختصر الترتيل يقود المصلين إلى تقديم (رحمة سلام، ذبيحة تسييح).

الليتورجيا ليست كما تبدو أحياناً مجرد حوار بين الكاهن والجوقة، بل تفاعل مباشر بين الله وشعبه. هذا الشعب الذي يشترك مع الملائكة والقديسين في السماء بتقديم بخور هذه الصلوات مرتلةً.

من هنا فمهمات الجوقة وقائدها كبيرة، يكون في صلب تفكيرها قيادة الناس مع الكاهن ليصلوا إلى علاقة حياة مع الله. فالليتورجيا هي هذه العلاقة، هي هذا العمل بين الشعب والله، فتأتي الجوقة في هذه الأثناء لتخصّص الصوت من مركز طبيعتنا إلى آذان إلها ورينا. هذا هو الترتيل الذي ينادي شعب الله إلى العبادة وتقديم التسييح لله.

#### رابعاً: بعض المشاكل التي تعترض المرتل

مما لا شك فيه أن الترتيل، ولو أنه في المبدأ تسييحٌ و صلاة، إلا أنه مناسبةٌ تكثر فيها التجارب. + من أكبر التجارب التمثهه. أن يُتعاطى الترتيل كفن. أن يُدهرن. الخشية، إذ ذاك، ليست أن يُفرغ من مضمونه وحسب. هذه علّة قاسيةٌ ولا شك، أن تُغفل المعنى وتحسب لغة النغم غايةً في ذاتها. هذا زنى في كل حال. الخشية الكبرى أنك متى فعلت ذلك هجرت الحياة الداخلية وبتّ تطالع يسوع وثناً بين الأوثان، لا تصدّق، في قرارة نفسك، أنّه حيّ. حين يموت في النفس الإحساس بالقدسات، أنّه "حيّ الله الذي أنت واقفٌ أمامه"، إذ ذاك تستمدد خطابك من بنات أفكارك ونوازع أحاسيسك. تُسقطُ على التراث معانيك وأخيلتك. أنت، إذ ذاك، أسيرُ دائرة العبادات النفسانية التخيلية. هنا يكون هدف المرتلين هو إخراج التراتيل بأفضل حالٍ وبأقلّ ملاحظةٍ للأخطاء أمام الناس (وهذا ليس بخطأ). ولكن تكمن المشكلة بأن البعض يأتي ليستعرض قدراته الصوتية. فيقع في حب الظهور. الترتيل عملٌ يبدأ من النوس ويخرج من الفم بمشاركة القلب، لكنه لا يبدأ من القلب كي لا يستحيل مجرد أداء عاطفي يُحرّك المشاعر لكنه لا يُثير التقوى. إن ترتيلاً لا يحرك إلا العواطف وهمّ مؤدّيه الأول هو الألحان والأصوات

هو ترتيبٌ ماديٌّ ذهريٌّ قد ينتج عنه تجارب. لذلك تمنع كنيستنا المقدسة استعمال الآلات، لأنه يوجد فرقٌ كبير بين النشوة من الموسيقى والرهبنة في العبادة.

تنصح الكنيسة المرتلين بأن يكون حضورهم إلى الكنيسة هُدف لقاء الرب وتناول دمه وجسده الطاهرين وليس للترتيل. وهنا أتذكر نشيداً جميلاً للأب نقولا مالك يقول فيه: (نحن نرتل لنصلي ولا نصلي لنترتل).

+ تشتت الذهن في وقت الصلاة. إنها مشكلة مرتلين كثيرين أنهم لا يقدرّون على استجماع ذهنهم والتركيز في مجمل صلواتهم. أي أنهم لا يقدرّون على إقامة صلاةٍ دافئةٍ موصولة، لأن ذهنهم يتقطع بأفكارٍ تهاجمهم من دون استئذان. مما يؤدي إلى انخفاض التركيز والانسجام بين الصلاة والترتيل. فيضيعُ المرتلُ بين نوبات القطعة الموسيقية وأهمية التركيز عليها، وبين التركيز على كلمات الصلاة.

يقول القديس يوحنا السلمي في كتابه (سلم الفضائل): "صارع فكرك بلا انقطاع وكلما شرد طائشاً عد واجمه. لأن الله لا يطلب من العائشين في الطاعة صلاةً خاليةً من شرود الذهن. فلا تقلق إذاً إن اختلس انتباهك، بل تشجع واسترجع دائماً ذهنك إليك، فإن الملاك وحده لا يُسلب انتباهه". ومعنى هذا الكلام الواضح أن المؤمن معرّض، في هذه الحياة، لأن يُختلس انتباهه إذا ما وقف أمام الله مصلياً. ولكن المهم، في مسعاه، أن يبقى واعياً حضور الله، ويعمل، بسرعةٍ وإصرارٍ جديّين، على استرجاع ذهنه، وألا يوقف الصلاة.

ينصح الآباء القديسون بصلاة المسبحة (صلاة الرب يسوع) لمعالجة هذه المشكلة في التشتت في الصلاة وضعف التركيز، وخاصةً عندما يتعب المرتل من التركيز الطويل مثل السهرانيات. فبعد تركيزٍ طويلٍ للعقل على كلمات التراتيل يرتاح المصلون إلى صلاة الرب يسوع التي تقوم على الترداد بشكلٍ أوتوماتيكي دون جهد، وهذا ما يقوم به الرهبان.

إذاً، على المرتل لتجنب هذه المشكلة، التنوع في مستوى التركيز الفكري نفسه، فيمتدّ بين اثنين: 1- التركيز الفكري الكليّ على كلمات الترتيل. 2- إراحة تامة للتركيز في أحضان الصلاة القلبية. بهذا التنوع الليتورجي، يصون المصلي تفكيره "طارحاً عنه كلّ اهتمامٍ دنيوي" إذ يختلي وإخوته بمعشوقهم ربنا يسوع المسيح.

+ اضطراب الحالة النفسية والروحية للمرتل. حيث يتخبط المرتل بين داخلته المتعبة، وبين واجبه في توصيل كلمة الله بشكلٍ صحيح، وذلك بسبب عدم امتلاكه للأرضية الروحية المناسبة التي يُبنى عليها الترتيل الروحي الصحيح، وهذا ناتجٌ من عدم التحضير المسبق للحالة النفسية والروحية، حيث يأتي المرتل للقُداس مثلاً، خالي الوفاض روحياً، من دون قراءة الكتاب المقدس أو قراءة صلاة المطالبسي الإلهي أو حتى دون الاعتراف أو الاسترشاد من أبٍ روحي. كل هذا لا بدّ أن يؤدي إلى الفتور الروحي.

+ الصراع على رئاسة القراية. (على كلّ قرايةٍ شيطان) لطالما سمعنا هذا القول واستغربنا، إذ كيف يمكن للمرتل أن يجمع في نفسه التناقض بين تسييح الله وعداوةٍ مع أخيه المرتل؟! في هذه التجربة نجد صراعاً على رئاسة

القراءة بين المرتل الشاب الذي يجيد الموسيقى البيزنطية وبين المرتل "الختيار" الذي يرتل على السمع. فيتسلل الشيطان ويهتف في إذن المرتل الشاب قائلاً: (يجب أن تُسكِّت المرتل الختيار فهو لا يلتزم بقراءة النوتة، ويتعارض مع المحافظة على تراث الموسيقى البيزنطية). هنا يتحمس المرتل الشاب ويبدأ بالتخطيط من أجل ثورة الحق على هذا المرتل الختيار!

من ناحيةٍ أخرى ينتقل الشيطان إلى الجبهة الثانية فيخاطب المرتل الختيار: (يا هذا الجيل المتكبر، صاحب الأصوات الطفولية، البعيدة عن الأداء الرجولي). هنا أيضاً يقع المرتل الختيار في الفخ، ويبدأ بتحسين مواقفه تحسباً لأيّ اختراقٍ شبابي يهدد تقاليد الكنيسة!

هكذا ينشئ الصراع بين الاثنين، ويصبحان كالأعداء يريد أن يحطم كل منهما صوت الآخر بالتشويش عليه، لنصل بالنهاية إلى تشتيت المصلِّين وإفساد جو الصلاة.

في هذا تنصح الكنيسة بالتضحية والمحبة الكاملة بين الاثنين، فتوجه كلامها للمرتل الشاب فتقول له: (حاول الاستفادة من بعض الأمور الإيجابية التي يملكها هذا المرتل الختيار من خبرةٍ وصوتٍ قويٍّ وبعض التمويجات الخاصة به، فالمهم ألا تعمي بصرك عن الأشياء الجيدة في ترتيله). فالحل الأفضل يكون بتكامل الأدوار وليس في انتصار جيلٍ على آخر. بمعنى آخر الكنيسة تبعدنا عن الكبرياء وتقربنا من التواضع.

مما سبق، تبين لنا الدور الجوهرية للترتيل والمرتل في قيادة التسييح ليكون موجهاً نحو الله وليس نحو الأنا. فلنتعرف الآن على ميزات هذا المرتل الروحي.

### خامساً: المرتلون

الترتيل كالقراءة وظيفةٌ كنسيةٌ يناها من أعطي تقوى وأعطي صوتاً. لهذا جاء في الجمع المسكوني الرابع أن زوجة المرتل يجب أن تكون مؤمنة فهو يختار زوجةً مؤمنةً لكونه يرفض كلَّ فصلٍ بين التزامه الكنسي وحياته الشخصية، وتالياً كلَّ توترٍ أو انحرافٍ في التعليم، وتريده الكنيسة أن يؤسس حياته العائلية على استقامة العقيدة. فالزوجة المؤمنة شريكةٌ في الحياة. ووحدة الانتماء، أو وحدة الشركة الكنسية، سندٌ أساسٌ لوحدة الحياة الزوجية وديمومتها، أو قاعدة لها. وتكلم الجمع الخامس - السادس عن عفته. وقالت الجماع أنه لا ينبغي أن يدمن لعب النرد. الفكرة العامة أن هناك شروطاً أخلاقيةً لقبوله. ومن شروط بقائه أن يمارس الصوم، ولعل الآباء وضعوا هذه القوانين، إذ شعروا بأن المرتل قد تُغريه صلوات الكنيسة أو يُسكره أداء الحانها، فيرى أنه وصل إلى السماء ولا يحتاج إلى شيءٍ آخر. صحيح أن العبادة بابٌ إلى السماء، أو هي السماء عينها نازلةٌ علينا. ولكن مدخل العبادة الحق هو الجهاد، وهو عينه ما يمدّها في العالم. والصوم وجّةٌ من وجوه هذا الجهاد الذي يُقدم فيه كلُّ مؤمنٍ فقره إلى الله وحاجته إلى رحمته. نحن لا نعتقد أنّ المشاركة في عبادة الكنيسة تبعد عن المؤمنين إغراء إبليس، ولو كانت العبادة حصناً كبيراً،

فإن إبليس قد يطلّ عن طريقها، وهو، من دون شكّ، يضرب المتهاونين. فالعبادة الحقّ، والمشاركة فيها لا تُفصل عن الحياة البارّة ومقتضيات الالتزام. المرتل وجةً للكنيسة بما تحمل هذه الكلمة من حلاوةٍ وتفترض من صدقٍ وجديّة. والناس يرون إلى المرتلين الملتزمين امتداداً للكنيسة، ويُعثرهم كلّ شرحٍ بين العبادة والحياة.

ولذلك، وفي السياق عينه، حرّم مجمع اللاذقية على المرتل دخول خمارة. والوجدان الكنسي يضيف على هذا أنه لا يستطيع أن يتعاطى فن الغناء. فالترتيل تكريس. إن من رتل لله يتقدس صوته.

المرتل يحتاج إلى معرفة الكتاب المقدس ليفهم القطع التي يرتلها ويجيد أداءها ويستطيع هو نفسه المعاني. إنه يحتاج إلى حدٍ أدنى من المعرفة الإلهية لكي لا يُصدر أصواتاً بل كلمات. ويحتاج إلى حسٍّ رعائي يجعله في خدمة الرعية لا هي في خدمة نزوة التغني والطرب عنده.

فأين هو الوضع اليوم من هذا؟ أكلّ المرتلين صوامون؟ أكلّهم محتشمون حتى أثناء وقوفهم على منبر الترتيل؟ أكلّ المنضمّين إلى الجوقات مُسامون؟ أكلّهم مستعدون للالتزام بما تملّيه عليهم الكنيسة؟ أكلّهم يعرفون الحدود بين المُتاح والنافع؟ أكلّهم يعرفون ما هو دورهم العبادي؟ أيكفي أن يعرف المرء التراكيب الموسيقية حتى يصبح مرتلاً حتى لا أقول ناظماً للتسايب؟ أيليق أن يسمّى امرؤ لا يقرأ الكتاب المقدس مرتلاً؟ أيعقل أن يعتلي منبر الترتيل من لا يعرف الكتب الطقسية بل حدود معرفته هي كتب النوطات وسلام الألمان؟

من هنا على المرتل أن يعيش تماماً كلمات الصلاة التي يرتلها، فيشعر بها من داخله وتحمله إلى عالم السماوات، فعندما نصلي مثلاً (قدوسٌ الله...) في القداس الإلهي يجب أن يشعر المرتل بأن الله حاضرٌ أمامه، وعليه هو أن يتلقف هذه القداسة ويشعر بها استعداداً للمناولة الإلهية. أيضاً عندما نصلي في المعمودية (أنتم الذين بالمسيح...) يجب أن يشعر المرتل بأنه بالحقيقة يخلع الإنسان القديم (الخطيئة) ويلبس الجديد (النعمة)، أي يلبس يسوع المسيح، بل عليه أكثر من ذلك أن يسعى ليرى الروح القدس حلاً على الطفل في جرن المعمودية. هكذا يخرج المرتل من الرتبة في الترتيل إلى حيوية الروح والاتحاد مع الكلمة الإلهية. لكن هذا لا يأتي من فراغ، بل يستند على قاعدةٍ روحيةٍ أساسها التوبة والاعتراف والمناولة والصلاة المستمرة والدراسة اللاهوتية...

من ناحيةٍ أخرى من المهم في كلّ أداء أن تكون السيادة للكلمة. نحن لسنا في أوبرا كلاسيكية ولا يراعي عندنا المرتلُ مجده الباطل. الصوت مساعدٌ للكلمة التي تبني وتُبغّ الرسالة الإلهية المحتواة في العبادة ولا سيما أن ليس مع المؤمنين نص. هاجس الكلمة يُدني المرتل والسامع إلى الخشوع.

وتأميناً لسيادة الكلمة تبقى الأوامر والنواهي بيد الكاهن الذي يؤم الصلاة. ليست "القراءة" محلاً مستقلاً عن الهيكل. الأمر لمن يرأس العبادة حتى نصلي "بفمٍ واحدٍ وقلبٍ واحدٍ". وظيفة المرتل الوحيدة أن يساعد المؤمنين على الصلاة.

هذا الجهاد الذي يقوم به المرتل يكمن في تكريس كل طاقاته التي منحها الله إياها ومن دون انقطاع لتمجيده. فلترتلوا ليس بالصوت والشفاه فقط بل بشكل خاص بالذهن والرغبة والغيرة وبكل كياناتكم. يحدث أحياناً أن يدخل أناسٌ إلى الكنيسة ليس لديهم شوق للصلاة، يدخلون اضطرارياً أو احتراماً ولكنهم بعد سماعهم الترتيل يبدؤون بالصلاة بحرارة ودموع، وهكذا يخرجون من الكنيسة في حالة مختلفة كلياً وبروح التخضع والتوبة. كما يحدث العكس أحياناً كثيرة أنهم بسبب سوء الترتيل يتضررون بدل أن يستفيدوا ولا يجدون تعزية فيسقطون دون إرادتهم في الإدانة بسبب التجربة الناجمة عن سلوك المرتلين.

سُئِلَ أحد الآباء: كيف أستطيع أن أصلي وأنا أرتل؟ فأجابه الأب: إذا لم ترَ نفسك في مكان السيرافيم والشيرويم (أمام الله) لن تمتلك الخشوع الواجب للصلاة وستبقى متظاهراً لا مصلياً، عندما تتذكر هذا فقط، يصبح ترتيلك ملائكياً.

على هذا، الترتيل جهدٌ داخلي أولاً، حركة قلب نحو الله "تكلّم يا ربّ فإنّ عبدك يسمع". هذا مضمون الترتيل والمرتلين. "هلمّوا خذوا نوراً من النور الذي لا يغب ولا يخبو ولا يفتقر من بين الأموات". المرتل الذي لا ينقذ كيانه بصلاة القلب لا يمرّ روحاً بل جنةً هامدة. لا المرتل حيادي ولا الترتيل. لذا ليس المرتل مجرد مؤدٍ. يؤدّي ما يفترض أن تعتمل به نفسه أولاً. ليس هو موظفاً ولا آلة تسجيل. الترتيل لا يؤدّي خارجياً مهما كان صوت المؤدّي جميلاً. الصوت وحده يُطرب، لكنّه لا يبني إنسان القلب. الطربُ يستدعي الطرب. ما تعطيه إياه تلقى. الترتيل صلاة، والصلاة هي حوارٌ مع الله، فكيف سنحاور من خلقنا، من هو علة الوجود وأب الجميع بكبرياء واستهانة؟! الترتيل ليس فناً، ليس استعراضاً أو غناء، إنه إيمان، وعمل المرتل لا يقل أهمية عن عمل الكاهن، يكفي أن الله الآب يسمح لنا نحن الخطاة بأن نسبحه رغم أنه ليس بحاجة إلى تسيبنا. أن نرتل يعني أن "الله يحبنا".

### سادساً: خاتمة

كثيراً من الناس يخدمون بأن الترتيل البيزنطي عامودٌ أساسيٌّ من أعمدة النهضة الحقيقية، التي تقوم عليها كنيسة المسيح. وهذا صحيح، فللترتيل موقعٌ ولا شك، ولكن إن لم تتب النفوس إلى ربّها وتشرع في حفظ الوصية وصولاً إلى تنقية القلب ومن ثمّ إلى المعينة، "وجهك يا ربّ أنا ألتمس"، فإنّ الترتيل مؤشراً على إيغال في عبادة الشفتين دون القلب. "هذا الشعب يعبدني بشفتيه أمّا قلبه فمبتعد عني بعيداً" (إش 29:13). إذ ذاك، لسنا في صدد نهضة حقانية بل انحطاط عميق.

رأيٌ أخيرٌ نبأته سويةً؛

في أوائل الزمن المسيحي كان الكل يرتلون. وقد يكون حسناً أن نبدأ العمل على استعادة الترتيل المشترك الجماعي. هذا كلامٌ قد يثير حفيظة بعض قادة الجوقات أو المرتلين المنفردين. لكن، رعائياً، أن يكون عندك رعية

مصليّةٌ وصوتٌ سيءٌ هو أفضلٌ بكثيرٍ من رعيةٍ متفرّجةٍ وصوتٍ جيدٍ. الأمر الأكثر إلحاحاً هو تقديس المشاركين في الصلاة. صحيح أن الترتيل الجيد يرفع نفسَ الإنسان لكن المشاركة تثبتها في المكان الذي ترتفع إليه. الإنسانُ المشارك يتذوّق حلاوة العبادة فتُحفظ نفسه من تجارب هذا الدهر.